

الهند في أدب الرحالة العرب

أ.د. عبدالله شمت المجيدل ●

مقدمة:

إنما صدق القائل «ليس الخبر كالعيان» هي الجملة الأولى التي بدأ بها البيروني كتابه الشهير» تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة «فمعاينة الرحالة وتعرفهم إلى البلدان والشعوب، يعدّان من أقدم أنشطة الإنسان منذ أن وجد على هذه البسيطة، فهو ما فتئ يتنقل بين البلدان والأمصار مشغوفاً ومتلهفاً لكل جديد يصادفه، ويذكر العلماء أن البشر ما زالوا في ترحال دائم منذ أن وجدوا على الأرض، وقد لعبت هذه الرحلات دوراً رئيساً في الكشف الجغرافي، وحققت الاتصال بين الشعوب واكتساب المعارف والاطلاع على العادات والتقاليد، مما حدا بكثير من المؤرخين إلى الإشارة بأن تلك المعارف كونت الإرهاصات الأولى لنشوء الاثنوغرافيا، والتي شكلت قاعدة أساسية للمقارنة بين أنماط الحياة ومظاهرها، كالبيئة والملبس والمأكل والطب وغير ذلك من جوانب المقارنة المتصلة بالنظم الاجتماعية والثقافية لدى الشعوب. وتأسيساً على ذلك فلا غرو أن يعدّ هذا النوع من الأدب الوسيلة الأكثر قدرة على توثيق مشاهدات الرحالة لمختلف جوانب الحياة والطبيعة، بالكلمة والوصف من خلال معاينة الرحالة لها. هذه

● اتحاد الكتاب العرب - سورية

الرؤية التي يفترض فيها الحياد نحو الظواهر حين وصفها، ولكنها غالبا ما جاءت مفعمة بمشاعر الرحالة وهذا ما جعلها مؤثرة في أسلوبها وممتعة في تفاصيلها، كما أنها ترصد المشاهد التي قد تبدو عادية لدى السكان المحليين في حين هي غاية في الأهمية، في دراسة تطور الأنماط الثقافية والدراسات المقارنة لعادات الشعوب وقيمها وتقاليدها، وعلى هذا النحو يوفر الرحالة مادة علمية قيّمة للدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية لمن سيأتون من بعدهم من الباحثين والدارسين. وموضوع الرحلة والترحال والسفر والغربة عن الأهل والأوطان، من الموضوعات التي استغرقت كثيراً من كتب المصنفين حيث تنوعت أخبارهم وتعددت أساليبهم. ولا شك بأن جزءاً لا يستهان به من معارفنا وتصوراتنا عن تاريخ بعض البلدان، إنما يعود إلى مدونات الرحالة، من تتابع السلاطين والحروب أو الأحداث العظيمة التي وقعت في تلك الأيام. وقد عرف العرب أدب الرحلات منذ القدم، وكانت عنايتهم بهذا الجنس الأدبي عظيمة في مختلف العصور، وقد حظيت الهند باهتمام كثير من الرحالة العرب مثل البيروني وابن حوقل والمسعودي وابن بطوطة، حيث وصفوا مشاهداتهم في المناطق التي زاروها، كما أسهم بعضهم في رسم الخرائط التي يصفون فيها جغرافيا البلدان التي شاهدوها، والطرق التي مرّوا بها، إضافة إلى مدونات بعض التجار الذين قصدوا الهند بتجارتهم مثل سليمان التاجر. والتي وثقت بعض جوانب حياة أهل الهند، مما يؤكد حقيقة أن الرحلات أكثر المدارس تثقيفًا للإنسان.

تاريخ العلاقات العربية الهندية :

إذا كان التاريخ العربي المعاصر قد شهد حالة مكثفة من وجود العمالة الوافدة من الهند، وخاصة في بلدان الخليج العربي، فإن العصور السابقة، كانت شاهداً على ذهاب العرب إلى شبه القارة الهندية، التي وصفها بعض الرحالة في تلك الفترة بأن «بحرها در وجبلها ياقوت وشجرها عطر» (عبد الرحمن،2014، 5). ويرجع ارتباط العرب بالهند إلى فترات موغلة في القدم، ورغم أن الظروف الطبيعية لم تكن مشجعة على الاتصال بين الطرفين لأن الطريق البرية نحو الهند كانت طويلة وشاقة، إلا أن الطريق البحرية لم تصمد طويلاً أمام المحاولات المبكرة من الجانبين للتعرف إلى الآخر. ولا يمكننا أن نحدد على وجه الدقة الفترة التي تعمقت فيها العلاقات العربية بالهند قبيل بداية الفتوحات الإسلامية، لكن يمكننا القول: إن الهند عند بداية الفتح لم تكن مجهولة بالنسبة إلى العرب، حيث تبلورت لديهم فكرة واضحة عن هذا العالم، من خلال اتصال العرب بأهل الهند، وعلى نحو خاص سكان جنوب شبه الجزيرة العربية (Nadvi.S.P.172).

وتشير المصادر إلى أن تاريخ العلاقات العربية الهندية يعود إلى ما قبل الإسلام، حيث كانت ترتبط ببلاد العرب بالطرق البحرية ورحلات التجار التي شكلت أساساً متيناً في تطور العلاقات العربية الهندية، وتعزيز التفاعل الثقافي والحضاري بينهما، وقد كشفت الآثار التي عثر عليها في موهنجدارو بأن حضارة هذه المنطقة توازي زمنيا الحضارة السومرية من حيث النشوء والرقي، وأثبتت قيام حضارة أولت عناية كبيرة بمختلف أوجه الحياة الحضارية، كما كشفت التنقيبات في بعض المواقع الأثرية العراقية والهندية، اتصال هاتين الحضارتين، ويدل عل ذلك التشابه الكبير بين المنجزات الحضارية للسومريين، وتلك التي عُثر عليها في موهنجدارو، كالعربات والأختام والأواني والحلي (باقر،2011، 376). ومن بين اللقى الأثرية في منطقة ديالى فقد عُثر على شكل هندي منحوت على الطريقة السومرية يمثل ثوراً ذا حدبة (Lamerg.C.P.302). ويرى «هما يون كبير» أنه لا يمكن الفصل بصورة قاطعة في حقيقة السكان الذين استوطنوا منطقتي موهنجودار، أو التثبت من الأماكن التي نزحوا منها إلى الهند، حيث تشير آثارهم إلى وجود تشابه مدهش بينهم وبين سكان «سومر»، وللمؤرخين آراء شتى في تعليل هذا التشابه، فيرى بعضهم أن هذه الحضارة امتدت من حوض غلإندوس باتجاه الغرب حتى بلغت شواطئ دجلة والفرات، واعتقد آخرون بأنها وصلت الهند من «سومر» (كبير،2010، 8). وتشير الآثار التي دلت عليها الحفريات، إلى عمق العلاقات بين الحضارتين العربية والهندية، ولا سيما الأوعية الفخارية ذات الشريط المنفرد، والتي عُثر عليها في أور وفي تل براك وفي تل بري وتل حمدي، في الجزيرة السورية في مناطق الحسكة، والطبقات الأولى من موقع موهنجودار في وادي السند (الأحمد،196،1985).

وفي العصر البابلي القديم (2004–1595) قبل الميلاد توثقت العلاقات التجارية والثقافية بين الحضارتين، فقد كانت سفن بابل تقصد الخليج العربي والمحيط الهندي لجلب العطور والأحجار الكريمة المستوردة من الهند(الندوي، 8). وقد أشار غوستاف لوبون إلى ذلك بالقول: كان البابليون أعظم أمم عصرهم في الملاحة، لأن كلاً من دجلة والفرات كان يصب في الخليج العربي فانفتحت أمامهم الطريق إلى شواطئ البلاد البعيدة كالهند الغنية بكنوزها (لوبون،87،1969).

وتشير المراجع بأن العرب جاؤوا تجاراً، ثم استوطنوا وأقاموا لأنفسهم عدداً من المساكن على سواحل "مالابار"، وأن الغرض العاجل من وراء قدوم العرب للسند هو حماية طرقهم التجارية مع الهند الجنوبية وسيلان، ولكن ما لبثوا أن أصبحوا قوة لا يستهان بها في هذه المناطق على مر الأيام (كبير،2010، 20). ويرى كراتشكوفسكي، بأن العرب قد تاجروا مع الهند والصين، إذ

يروى عن الدينوري أنه عندما سقط ميناء الأبلة قرب البصرة في يد العرب في خلافة عمر بن الخطاب، وجد فيها المسلمون سفناً صينية (كراتشكوفسكي، 1957، 138). وتركزت العلاقات التجارية بين الحضارتين بداية في التبادل التجاري، حيث كانت الصادرات السومرية تتمثل في الشعير والزيوت والجلود والصوف والنمور والمنسوجات، في حين استوردوا من الهند العاج وصدف المحار وبعض الأحجار الكريمة والحجر الصابوني والخشب وطيرالطاووس (الندوي،7). ثم ما لبثت هذه العلاقات أن تعززت بصورة كبيرة، بعد ظهور الإسلام وانتشاره في أصقاع الهند، إبان مرحلة الفتح الإسلامي لبلاد الهند، واعتناق كثير من أهل الهند للإسلام، وقد أشار الباحث الهندي«همايون كبير» إلى أن طبيعة الهند قد ساعدت إلى حد كبير على بث روح التسامح القائم فيها، وأن اتساع مساحتها والتنوع العظيم في مناظرها ومناخها وطرق معيشتها، هيأ العقول لقبول الفوارق القائمة، وأوجد متسعا جديداً للسكان الذين قدموا إليها من الخارج (كبير،2010، 54). كما أنه في كثير من الأحيان كان المسلمون الذين قدموا إلى الهند من المحاربين ولم يصطحبوا أزواجهم فاتخذوا لأنفسهم أزواجا هنديات (المرجع نفسه، 25). ويرى « كبير» بأن تأثير الإسلام في الهند كان عميقاً جداً؛ فالاتصال بين الأفكار القديمة والجديدة حمل أصحاب النباهة والإحساس على أن يتأملوا ويفكروا من جديد في أسرار هذا الكون ومشاكله الخالدة، لا سيما بعد أن تجردت العقول من موانع التقاليد القديمة، وظهرت فلسفات جديدة لتظهر التقارب بين الأفكار الهندوسية والإسلامية، ومع ذلك فإن عمليات الاستيعاب والتوفيق بين النظامين لم تكتمل كلياً، علما أن المدن شهدت عملية اندماج بين الثقافتين، وعوضت الأهمية السياسية للمسلمين عن قلة عددهم (المرجع نفسه، 82).

أهم الرحالة العرب الذين قصدوا الهند في رحلاتهم

يعد سليمان التاجر من أبرز رحالة القرن الثالث الهجري، حيث دوّنَ رحلته في مذكرات كتبها سنة 237 هجرية الموافق 851 ميلادية، وهو لم يكن رحالة ولا جغرافياً أو مؤرخاً، بل تاجراً من سيراف، اعتاد السفر إلى الهند والصين لجلب السلع من هناك، وبيعها في البلاد العربية. ولم يُعثر في الكتب والمخطوطات على بقية اسمه أو تفاصيل حياته، وقد عُثر على مخطوطة لكتاب «سلسلة التواريخ» دوَّنها عراقي من مواطني سليمان ويدعى زيد حسن السيرافي، عاش بسيراف في القرن الرابع الهجري، بعد نحو ستين عاماً من تاريخ كتابة سليمان لمذكراته، وأضاف إليها أخبار التجار والبحارة. وقد عثر عليها المستشرق الفرنسي رينودو سنة 1718 في إحدى مكتبات

باريس الخاصة، وسلمت بعد ذلك إلى دار الكتب الأهلية، وقام رينودو بترجمة المخطوط إلى اللغة الفرنسية ونشره بعنوان «أخبار قديمة من الهند والصين أوردها اثنان من الرحالة المسلمين سافرا إلى هناك في القرن التاسع الميلادي» وجاء بعد ذلك مواطنه المستشرق رينو وأعاد طبع النص سنة 1845 موضحاً أن الأب رينودو أخطأ في نسب المخطوط لاثنين من الرحالة العرب، في حين أنه للتاجر سليمان، أما أبو زيد حسن السيرافي الذي نسب له الجزء الثاني فلم يكن إلا هاوياً جغرافياً يتسقط الأخبار عن الهند والصين من ألسنة التجار والبحارة بسيراف، ولم يذكر أبو زيد أنه التقى بسليمان التاجر، مع أنهما من مدينة واحدة، بل قام بتدوين ما سمعه من البحارة، وأضافها إلى مذكرات سليمان التاجر بعد ستين عاما من تدوين سليمان التاجر لها، وهي فترة ترجح احتمال تدوين أبي زيد حسن السيرافي للمخطوط بعد وفاة سليمان التاجر. كما أنه لا يدعي لنفسه السفر إلى تلك البلاد، بل يعترف صراحة أنه جمع بعض المعلومات وبوّبها وضمّ فصولها إلى مذكرات التاجر سليمان. وقام المستشرق الهولندي «فراند» بنشر ترجمة جديدة للكتاب سنة 1921 مضيفاً فقرات من «مروج الذهب» للمسعودي ليكمل ما فيه من نقص(المجيدل،143،2008-144). يشار إلى أن مكتبة كولبير الفرنسية قد اشترت المخطوط الأصلي لكتاب سليمان التاجر لحسابها من حلب عام [1]1673(الشاروني، 2000، 9). وقد شكك «سوفاجيه» في نسبة الجزء الأول من كتاب رحلة سليمان التاجر مستدلاً بذلك إلى أن اسم سليمان التاجر يأتي في سياق النص بالإشارة إليه بضمير الغائب، وفي الحقيقة إنه أسلوب متبع في الكتابة آنذاك، ونجده في كثير من المواقف في كتب التراث. ومن الأشياء التي أشار إليها سوفاجيه، هو اكتشافه بأن المسعودي قد أخذ من كتاب أبي زيد الحسن السيرافي بشكل حرفي ما يتصل بأخبار الهند والصين، إذ إنه كرّر الخطأ الذي وقع فيه الناسخ في كتاب السيرافي ليقع فيه المسعودي نفسه أيضاً دون أن يفطن إليه. وذلك حين كتب الناسخ في الجزء الأول من أخبار الصين والهند عندما كان يتحدث عن إحدى الجزر هناك بقوله:«وفيها خلق كثير عراة الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر، فإذا مرت بهم المراكب جاؤوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد وما يحتاجون (إليه) من كسوة لأن لا حر ولا برد عندهم». فقد أضاف الناسخ لكتاب السيرافي كلمة إليه، وبذلك أصبحت (ما) اسماً موصولاً بمعنى الذي بعد أن كانت أداة نفي حتى يتسق المعنى، وإلا كيف يكونوا عراة ويشترون الثياب؟ ويُلاحظ أن المسعودي قد اقتبس في أكثر من موضع من كتاب التاجر، ولعل

أغلب أخبار البلاد كان المؤرخون والرحالة يستقونها من المسافرين والسكان المحليين الذين يقابلونهم أو ما يكتب عن البلاد التي زاروها(المرجع نفسه،12). مع أنني وجدت العبارة منفية بحرف النفي (لا) في كتاب قنديل (...وبايعوا أهل العنبر والنارجيل بالحديد، ولا يحتاجون إلى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد...) (قنديل،2002، 101).يشار إلى أن رحلة سليمان التاجر لفتت أنظار كبار المستشرقين منذ بدايات القرن الثامن عشر، مثل رينودو والمستشرق رينو وسوفاجيه وفيرن الذي أعاد تحقيقها وترجمها بمنهجية عالية. ثم عثر في السنوات الأخيرة الباحث التركي فؤاد سزكين خلال دراساته على نسخة أكمل من هذه المخطوطة وطبعها ضمن النصوص العربية النادرة، وقد طبع «المجمع الثقافي» في أبو ظبي المخطوطة بالاستناد إلى نسخة باريس في سنة 1999.ويرى كراتشكوفسكي أن قصة سليمان التاجر ترجع إلى حوالي سنة (237هـ، 851 م). وهو خير مثال للتجار العرب الذاهبين إلى الهند والصين، حيث وصف الطريق إلى الهند والصين بدرجة عالية من الدقة مكنت "فيران" من أن يتتبعه على الخرائط الحديثة. وقد ترك وصفاً للسواحل والجزر ومختلف الموانئ والبلدان وسكانها والمحاصيل والمنتجات وسلع التجارة. ومع أن بعض العلماء المتخصصين في علوم الصين مثل "يول" و"بليو" قد تشككوا في نسبة القصص إليه، في حين أن ابن الفقيه ينسب القصص صراحة إلى سليمان التاجر، لذا فإن مسألة تأليفه لها لا يحوم حولها أدنى شك (كراتشكوفسكي، 1957، 142). ويعد سليمان التاجر أول من قدم وصفاً قيماً للطريق التجارية البحرية التي تربط منطقة الخليج العربي بالهند والصين في نظر كثير من الباحثين، ومع ضلوعه وفهمه في علم الجغرافيا حين اهتم بذكر المسافات بين الموانئ والمدن والمحطات والمراكز التجارية والمسافات بينها، وأوضح أماكن وجود المياه العذبة الصالحة للشرب، وتعرض إلى ذكر الصلات التجارية بين منطقة الخليج وبلدان المحيط الهندي والمحيط الهادي، وتمتاز هذه الرحلة وذيلها بالوصف الصادق للطرق التجارية، ولبعض العادات والنظم الاجتماعية مع قلة الأساطير والخرافات، التي كانت الطابع العام لكل رحالة ذلك العصر.

ومن أهم رحالة القرن الرابع الهجري العرب الذين قدموا إلى الهند أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (362 – 440 هجري)، الذي لم يتوقف عن تزويد فروع العلم والمعرفة بمؤلفاته العديدة والتي يمكن القول، بأنها بلغت ذروتها على حد تعبير كراتشكوفسكي بكتابه عن الهند، ذلك الكتاب الذي وصفه «روزن» بأنه « أثر مزيد في بابه لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو

الوسيط سواء في الغرب أو الشرق»(المرجع نفسه،244). يشار إلى أن البيروني حرص على الكتابة بالعربية على الرغم من معرفته بلغات أخرى، فهو يرى أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة الجديرة بأن تكون لغة العلم، فيقول في آخر مصنفاته وهو كتاب «الصيدنة»:» وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت إلى الأفئدة وسرت محاسن اللغة، والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية» (المرجع نفسه،256-257). وقد استطاع البيروني أن يقدم لنا توثيقاً دقيقاً لثقافة أهل الهند وعاداتهم وطبيعة بلادهم، حيث عاش بينهم فترة طويلة من الزمن، ومكنته معرفته للغتهم من أن يوثق مختلف جوانب حياتهم في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» الذي يعد من أهم المصادر العربية عن أحوال أهل الهند في تلك الفترة، وبذلك هيأ مادة مهمة لمن جاء من بعده من الدارسين على مدى قرون، قدم من خلالها وصفا دقيقا في غاية الأهمية لأهل الهند ولتفاصيل حياة الشعوب التي تسكن تلك البلاد.

أما ابن بطوطة الذي بدأ رحلاته في وقت متأخر عمن سبقوه إلى بلاد الهند؛ أي بين عامي 712-725 هـ حيث وصل مدينة الملتان عام 733هـ الواقعة على الجانب الغربي لنهر السند، حيث وصف الأوضاع السياسية والإدارية في السلطنة منذ القرن السادس الهجري، وتلك التفاتة مهمة من ابن بطوطة لمعرفة ماضي الهند، وأهم الأحداث السياسية فيه. وكان مصدره في سرد تلك المعلومات الشيخ كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي، ويصفه بـ «الإمام العلامة الفقيه» والذي استعرض له أخباراً كثيرة حول تاريخ الإسلام في الهند منذ القرن السادس للهجرة. وتعد رحلة ابن بطوطة مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الهند الثقافي والاجتماعي، حيث تهيأ لابن بطوطة دون غيره من الرحالة العرب، باستثناء البيروني، معايشة المجتمع ولاسيما سلاطينهم، لفترة طويلة، وهذا منحه فرصة المعرفة الدقيقة لجوانب من حياة الطبقات الخاصة في الهند، والتي لم تتح لغيره من الرحالة .

في وصف ملوك الهند

يروي سليمان التاجر بأن أهل الهند مجمعون على أن ملوك الدنيا أربعة، فأول من يعدون من الأربعة ملك العرب، وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه، أنه أعظم الملوك وأكثرهم مالاً وأبهاهم جمالاً، وأنه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شيء» ونص التاجر يوحي بالاحترام الذي يحظى به الخليفة العباسي لدى الهنود (التاجر،والسيرافي،2000، 43). ويضيف التاجر في وصف ملوك الهند بأنهم «يلبسون الأقراط من الجواهر النفيسة في آذانهم من الذهب، ويضعون

في أعناقهم القلايد النفيسة المشتملة على فاخر الجوهر الأحمر والأخضر، واللؤلؤ ما يعظم قيمته ويجل مقداره، وهو اليوم كنوزهم وذخايرهم وتلبسه قوادهم ووجوههم. والريس منهم يركب على عنق رجل منهم وفوطة قد استتر بها وفي يده شيء يعرف بالجترة، وهي مظلة من ريش الطواويس(المرجع نفسه،97). وممّا رواه المسعودي بأنه رأى في بلاد سرنديب (وهي جزيرة من جزائر البحر) إذا مات ملك من ملوكهم صير على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدة لهذا المعنى، وشعره ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي أيها الناس، هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه وقد صار أمره ما ترون من ترك الدنيا وقبض روحه ملك الموت، والحي القديم الذي لا يموت، فلا تغتروا بالحياة بعد، ويُطاف به في جميع شوارع المدينة ثم يُفصل أربع قطع، وقد هيئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب فيحرق بالنار، ويُذر رماده في الرياح (المرجع نفسه ، 103). ويورد سليمان التاجر أن في مملكة بلهرا وغيرها من ممالك الهند من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ وتمكنه في قلوبهم وزوال الشك فيه عنهم، وفي ملوكهم من إذا قعد للملك طُبخ له الأرز ثم وُضع بين يديه على ورق الموز، وينتدب من أصحابه الثلاثمئة والأربعمئة باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز، وبعد أن يأكل الملك منه يتقرب كل منهم، فيأخذ منه شيئا يسيراً فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم في اليوم الذي مات فيه، لا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر(المرجع نفسه،89). ومما أورده المسعودي بأن الهند لاتُملك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة. ولاتكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا في كل برهة من الزمان معلومة. ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية، لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقا لهيبتها، واستخفافا بحقها. والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخير، ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة (المرجع نفسه، 103). كما أكد المسعودي ما أورده سليمان التاجر من تعظيم لملك العرب عند سائر الملوك، حيث ورد المسعودي، بأن ملوك الصين والهند والترك والزنج وسائر ملوك العالم أقرت لملك بابل بالتعظيم، وأنه أول ملوك العالم، وأن منزلته فيهم كمنزلة القمر في الكواكب، لأن إقليمه أشرف الأقاليم، ولأنه أكثر الملوك مالاً، وأحسنهم طبعاً، وأكثرهم سياسة، وأثبتهم قدماً. وهذا وصف ملوك هذا الإقليم فيما مضى لا في هذا الوقت، وهو سنة اثنتان وثلاثون وثلاثمئة. وكانوا يلقبون هذا الملك «شاهنشاه»، وتفسيره ملك الملوك. ومنزلته في العالم منزلة القلب من جسد الإنسان، والواسطة

من القلادة. ثم يتلوه ملك الهند، وهو ملك الحكمة، وملك الفيلة، لأن عند الملوك الأكاسرة أن الحكمة من الهند بدؤها (المرجع نفسه، 131).

في وصف تمثال بوذا

وصف الرحالة ابن رسته تمثال الصنم براهم، معبود الهنود، إلا أنه لم يصفه باعتباره الإله «براهم» معبود الهندوس بل وصفه باعتباره أحد تماثيل الإله بوذا، حيث يتبيّن من خلال ما رواه ابن رسته أن المصادر العربية لم تكن تميز بين التماثيل المعبودة في الهند واعتبرتها صنم «البد» (Muhammed.S.p.393). ويروي ابن رسته في وصفه للصنم بأنه على هيئة رجل ذي أربعة أوجه له إقبال وليس له إدبار، يحجون إليه من كل مكان، ويطوفون حوله سبعاً على اليسار ويخشعون بين يديه، حيث ما داروا يستقبلهم بوجهه، وإذا طافوا سجدوا عند كل وجه يستقبلونه ويسألون عنده حاجاتهم. ويضيف ابن رسته أن السدنة يغسلون بدن الصنم بالسمن واللبن ثم يدفع إلى مرضاهم حتى يغسلوا به معتقدين الاستشفاء به(ابن رسته،1891، 136). وحسب وصف البيروني لتمثال بوذا معبود الهنود فهو صنم على شكل شاب جالس حسن الوجه خير قليل الشعر، يمدّ يديه إلى الأمام حتى تبلغ ركبتيه وهي الهيئة نفسها التي يعرف بها إلى يومنا هذا، تمثال بوذا (البيروني،57،1993). ومن الأصنام التي وثق البيروني مشاهدته لها صنم "مولتان" باسم الشمس ولذلك سمي "أدت" وكان خشبياً ملبساً بستخيان تحمر في عينيه ياقوتتان حمراوان، وكان محمد بن القاسم بن المنبه لما افتتح المولتان، نظر إلى سبب عمارتها والأموال المجتمعة فيها فوجد ذلك الصنم؛ إذ كان مقصوداً محجوجاً من كل أوب، فرأى الصلاح في تركه بعد أن علق لحم بقر في عنقه استخفافا به، وبنى هناك مسجداً جامعاً فلما استولت "القرامطة" على المولتان، كسر" حلم بن شيبان" المتغلب ذلك الصنم وقتل سدنته (المرجع نفسه، 44).وقد نال هذا التمثال ومعبده في مولتان اهتمام كثير من الرحالة الذين زاروا الإمارة، باعتباره أهم المزارات المقدسة للهنود داخل نطاق النفوذ الإسلامي، ولما كان يمثله من أهمية بالغة للمسلمين استراتيجيا واقتصاديا. أما البناء المعماري للمعبد فيتكون من قصر ضخم بداخله هيكل يستقر بداخله التمثال، وحول هذا الهيكل توجد غرف السدنة والعاكفين، وكان هؤلاء القائمون عل خدمة التمثال هم المسموح لهم فقط بدخول الهيكل، حيث يقومون بغسله بالسمن أو اللبن ويقدمون له القرابين، وكان يحرم عليهم أكل اللحم وإتيان النساء (الإصطخري ، 1994، 103). ويورد القزويني درجة تقديس التمثال التي تبلغ من التقديس لدى بعض الهنود بأن يقدم على قتل

نفسه تقربا له (القزويني،1994، 122). وتروي الأساطير الهندية أن التمثال نزل من السماء، وأنهم أُمروا بعبادته لذلك يحج إليه الهنود من كل فج عميق، وتبدأ الطقوس من الحج بحلق الرؤوس عند المعبد، ثم الطواف يسار التمثال سبع مرات تقرّباً إليه، ثم تقدّم القرابين والذبائح (ابن حوقل، 1992، 321). وأحصى ابن رسته ريع المعبد حيث كان كل حاج يقدم للمعبد سنوياً مابين مئة إلى ألف درهم، وكانت أموال النذور تقسم إلى ثلاثة وجوه، الأول يذهب للأمير السامي، والثاني ينفق منه على المدينة وحصونها، والأخير يذهب للسدنة (ابن رسته،1891،135). ويضيف ابن رسته أن الساميين اتخذوا من مولتان حاضرة لهم، وأنهم اعتمدوا بصورة أساسية في مواردهم على أموال الحجيج الهنود، الذين كانوا يزورون معبد بوذا المقدس ويخصونه بنذورهم، التي كان الأمير السامي ينال نصيب الأسد منها(المرجع نفسه، 29). ويؤكد المسعودي في مروج الذهب، على ما ذكره ابن رسته بشأن الدخل المرتفع الذي يجنى من نذور الحجيج البوذيين (المسعودي، 1966، 166).

في وصف بعض ظواهر الطبيعة

وأما الظواهر الطبيعية التي وثقها سليمان التاجر الرياح الإعصارية الحلزونية التي تسمى الدردور أو نافورات الماء وهي إحدى الظواهر الخطيرة التي هددت السفن التجارية في المحيط الهندي، فقد وصفها سليمان التاجر يقول: « سحاب أبيض يشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر، فيغلى له ماء البحر مثل الزوبعة، فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته، ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر» (التاجر،1994، 76). كما أشار ابن رسته بأن بلاد الهند في قسمها الأوسط والجنوبي تمطر في الصيف، وأما المناطق الشمالية والبعيدة عن البحر إلى حدود بلاد التبت وكابل وغيرها من البلدان، فلا تمطر في هذه الفترة غير أنها تثلج في الشتاء وهواؤها بارد(ابن رسته،8،1891). وهذا ما أكده أبو زيد السيرافي بأن بلاد الهند تمطر في الصيف ولا تمطر في الشتاء، وفي موسم المطر صيفاً يلزمون بيوتهم، وهي بيوت مصنوعة من خشب مضللة بحشائش، ويفيدهم ذلك في زراعة الأرز، وعندما تتوقف الأمطار وينكشف السحاب ينمو محصول الأرز بوفرة (التاجر،1994، 126-127). أما البيروني فقد وصف هذه الأمطار «بمطر الحميم» لتساقطها في فصل الصيف (البيروني،1993، 103) .

مدن الهند وممالكها

يورد الإصطخري في وصفه لمدينة المنصورة، بان أهلها مسلمون وحاكمهم أيضاً وهو قرشي

من ولد هبار بن الأسود، إلا أن الخطبة بها للخليفة العباسي، وتتميز برخائها واحتوائها على النخيل وقصب السكر وثمرة الليمون الحامض بحجم التفاح، ويبدو أنهم يتعاملون مع جميع أنواع الأموال المتداولة في المنطقة حينها، فإلى جانب الدينار العربي هناك الدراهم الطاطرية الهندية القديمة (الإصطخري1994، 174). ويؤكد الأصطخري بعد ذلك من أن حكام الإمارة يجعلون الخطبة للخليفة العباسي. ولم يضف ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك جديداً على ما سبق، باستثناء أنه أخطأ عندما ذكر أن أموال الحجيج تذهب للأمير الهباري، رغم أنه ذكر بعد ذلك أن الإمارة كانت لأسرة بني سامة. وهكذا أكد الاثنان على أن النفوذ الروحي للعباسيين على الولاية بإمارتيها والعلاقات الطيبة بين الإمارة السامية والدولة العباسية. أما المسعودي فقد لاحظ في هذه الإمارة الفيلة المخصصة للحرب حيث يجعل في خراطيمها «قراطل» وهي سيوف هندية معوجة، يتمكن الفيل بفضلها اختراق كل ما يعترض طريقه وتمزيقه، وفي هذا الوقت يغطى خرطوم الفيل بصفيحة من حديد لحمايته، كما يصفح جسده بصفائح نحاسية وأخرى حديدية(المسعودي ،1966 ، 113).ومما يثير الانتباه ما أورده ابن حوقل من أن اللغة الجاري استعمالها في الإمارتين الإسلاميتين المولتان والمنصورة هي اللغة العربية(ابن حوقل ،1992، 18). يشار إلى أن المقدسي من الجغرافيين الذين زاروا مدينة المنصورة، ووصف معمارها، فذكر أن دورها مبنية من خشب وطين وهي شبيهة بمباني مدينة دمشق(المقدسي،1992، 479).وفي وصف المدن والممالك الهندية مملكة الكمكن (البلهرا)، وهي من أكثر الممالك الهندية شهرة وملكها أعظم ملوك الهند والبلهرا تعني ملك الملوك وقد نقش على خاتمه القول التالي :» مَنْ ودّكَ لأمرٍ ولّى مع انقضائه» (ابن خرداذبه،1992، 65). ويشير سليمان التاجر في مدوناته بأن البلهرا من الأسر الهندية الشريفة والكل يقر لها بالشرف، ويصفها ب « المخرمي الآذان» وكل ملوك الهند مخرومو الآذان ويتزينون بالأقراط وأن مملكته تمتد على طول الساحل(التاجر،1994، 27). وتشير المصادر بأن المسلمين داخل بلاد البلهرا تمتعوا بمكانة خاصة ومعاملة حسنة، حيث كانوا يمارسون عباداتهم بحرية، فكانت لهم مساجد وجوامع، وكان ملوك بلهرا محبين للعرب وكذلك أهل البلاد من الهنود كانوا يعتقدون بأن إعمارهم في الملك متعلق بمحبتهم تلك (المرجع نفسه،1994، 27-28). وذكر المسعودي الذي زار المدينة سنة 304 أنه وجد بها نحو عشرة آلاف من المسلمين قاطنين بها منهم السيرافيون وعمانيون وبصريون وبغداديون والبياسرة الذين يراد بهم من ولد من المسلمين بأرض الهند(المسعودي،1966، 248). أما مملكة الطافن فقد تباينت

تسمياتها حيث وردت الطافق عند سليمان التاجر والطافن عند ابن خرداذبه والطاقي عند المسعودي وابن رسته ومما توصف به هذه المملكة هو جمال نسائها وبياضهن ويعتبرن أجمل نساء بلاد الهند (التاجر،29،1994) . كما ذكر المسعودي في مروج الذهب نساء الطافق أو الطافن بأنه ليس في نساء بلاد الهند أحسن منهن، ولا أكثر منهن بياضاً، وهن موصوفات الخلوات، مذكورات في كتب الباه (المسعودي،1966، 146). أما مملكة قمار فيصفها الرحالة العرب بأنها من أبرز الممالك الهندية وتتميز بجبالها وكثافة سكانها، وأكثر أهلها تجار يتاجرون بأفخر أنواع الطيب، وينسب إلى بلادهم وهو العود القماري، الذي يحمل إلى البلاد العربية(المرجع نفسه،94). وقد أقام بها الرحالة ابن رسته ضيفاً على ملكها مدة سنتين، وأشار بأن ملوك قمار يحرمون الزنا في بلدهم، ويعاقبون فاعله بالقتل، وحتى من يشرب الخمر فإنه يلاقي الجزاء نفسه، وأشاد بكرم ملكها وعدله وإنصافه، حيث كان يحيط نفسه بقضاة ونسك بوذيين يساعدونه في إدارة أمور الرعية كما أن له ثمانين رجلاً ذوي جمال وهيئة حسنة يصلحون أمور الملك (ابن رسته،132،1891-133). وفي وصف الرحالة العرب لمملكة الزابج، فقد أورد سليمان التاجر وأبو زيد السيرافي بأنها مجموعة من الجزر تتوسط الطريق نحو الصين، ويحكمها ملك يدعى المهراج (أي الملك الكبير) ولباس أهلها الفوط سواء منهم الغني أم الفقير، وهي من أخصب الجزر وذات بناء معماري منتظم(التاجر،1994، 18-19). ومن أهم منتوجاتها التي كانت تجلب إلى البلاد العربية، معدن الرصاص القلعي وخشب الخيزران والكافور والنارجيل والموز وقصب السكر والقرنفل والثياب القطنية(ابن خرداذبة،1992، 64). ومن آداب الملوك في هذه المملكة ألا يجلس أحد بين أيديهم سواء من أهل مملكته أو الممالك الأخرى وحتى من المسلمين، إلا متربعا ويسمى عندهم «البرسيلا» ومن يمد رجليه أو يجلس غير تلك القعدة فعليه غرامة ثقيلة حسب وضعه الاجتماعي(التاجر،1994، 154). كما انفردت رحلة ابن بطوطة في تقديم معلومات قيمة عن الوضع الاقتصادي العام في الهند، حيث ذكر أنواعاً كثيرة من المزروعات ومنها: النبق والعنبه والشكّي والبركي والتندو والنارنج الحلو والحامض والمهوا(العنب) و فضلا عن حبوب القمح والشعير والحمّص والعدس. ويؤكد الرحالة الإيطالي دي كونتي (طافور،1968، 84). ما تحدث به ابن بطوطة عن الزراعة في سفوح الجبال، والتي كانت معروفة في عدد من مناطق الهند وجزر الهند الشرقية، ويورد مثالا عن زراعة القمح والفواكه والتوابل في سفوح جبل سيلان والتي يبدو أنها كانت تعتمد على مياه الأمطار في سقيها. كما وصف الجوانب الثقافية والعلمية وطبيعة

الوضع الثقافي والعلمي في الهند بدقة وتركيز في منتصف القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد، ومن أهم المساجد التي ذكرها ابن بطوطة في الهند مساجد مدينة دلهي، المتعددة والكبيرة ولاسيما مسجد قوّة الإسلام، والذي أجري عليه توسيع في باحاته وغرفه ليستوعب أعداداً من الطلبة، وكذلك مسجد مدينة بدفتن ويسكنه (الغرباء) المسلمون (ابن بطوطة،1994، 44). كما تحدث عن مدينة هيلي، وهي إحدى المدن المهمة التي احتوت على المسجد الجامع الكبير، إذ كان «يسكنه عدد من الطلبة يتعلمون العلم، ولهم مرتبات من مال أوقاف المسجد، وله مطبخ يصنع فيه الطعام للوارد والصادر، ولإطعام الفقراء من المسلمين بها « (المرجع نفسه،41). ثم مسجد مدينة سيوستان ذات الطابع الإسلامي والتي تعد من أقدم المدن الهندية الواقعة على نهر السند، فقد وجد فيها أقدم مخطوط إسلامي نادر يدل على انتشار الإسلام فيها يعود إلى أواخر القرن الأول للهجرة، وهو كتاب من الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99-101هـ). يأمر بموجبه بأن تتولّى إحدى أعرق الأسر وهي عائلة الشيباني الخطابة في جامع المدينة، ونص الكتاب:»هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه عام تسعة وتسعين»(المرجع نفسه، 81). واستمرت تلك الأسرة تتوارث الخطابة إلى حين زيارة ابن بطوطة لتلك المدينة حيث كان الخطيب الشيباني مصدراً له في تلك المعلومة.

عادات أهل الهند

أورد ابن رسته أن تجار الهند الذين تعرف إليهم لا يشربون الخمر، وأن ملك قمار كان من أكثر الملوك تشدداً مع شاربي الخمر، وإن شرب أحد قواده تحمى حلقة من حديد في النار ثم توضع على يد المذنب قد تؤدي إلى قتله، ومن العقوبات الأخرى قطع اليدين والرجلين والأنف والشفتين والأذنين، ولا يهتم بالغرامة المالية كباقي الملوك، وإذا رأوا أحد المسلمين يشرب الخمر فإنهم يحتقرونه ولا يأبهون به (ابن رسته،1891، 133). ويؤكد المسعودي ما أورده ابن رسته ويضيف بأن أهل قمار يتميزون بطيب رائحة أفواههم لاستعمالهم السواك، كأهل ملة الإسلام(المسعودي،1966، 94). وأما مملكة قنوج فقد أورد سليمان التاجر بأن أهلها يشتهرون من بين الهنود بأن فيهم أهل علمهم البراهمة، وشعراء كبار يغشون الملوك، ومنجمون وفلاسفة وكهان وسحرة يبدعون في التخاييل(التاجر،1994، 127). وأشار المروزي بأن من أبرز ملامح المجتمع الهندي، والذي لا يزال يتصف بها، هو براعتهم في المعازف واللهو إلى جانب ممارستهم للسحر وإظهار التخاييل والوهم والطلاسم، ويزعمون أنهم يحلون ويعقدون ويضرون وينفعون،

ويعملون أمورا يقف عندها عقل اللبيب(المروزي،1942، 27). وعن الزراعة فيها وطبيعة طعام أهلها ولباسهم فقد أورد المقدسي بأنها ذات مياه غزيرة، ويزرعون الموز ورخيص أكلهم الأرز ولباسهم الأزر (المقدسي،1992، 480). وعن موقعها فقد وصفها ابن حوقل بالسحيقة والنائية في منتصف الغابات والصحاري ولا يمكن أن يصلها التجار إلا من أهلها(ابن حوقل،1992، 318-319). أما عن العادات الهندية التي يشبه فيها سلوك المسلمين، حسب وصف سليمان التاجر هي حرصهم على النظافة قبل الأكل، فذكر أن أهل الهند لا يأكلون حتى يستاكون وينظفون أفواههم ويغتسلون كل يوم قبل الغدو، وأضاف أن أكثر غذائهم قائم على الأرز والنارجيل وجوز الهند(التاجر،1994، 56). وأن أهل الهند لا يشربون الخمر ولا يأكلون الخل لأنه من الشراب، وهذا التحريم ليس من قبل الدين، إنما أنفة منهم وذلك لما يؤثر في اليقظة والعقل بصورة سالبة، ويسري هذا العرف على كل الهنود، بما فيهم ملوكهم وجميع طبقات المجتمع(ابن خرداذبه،1992، 68). وقد عرض سليمان التاجر إلى وصف أحد عباد البراهمة الهنود، وبالرغم من أنه لم يذكر تسمية الطائفة التي ينتمي إليها هذا المتعبد، إلا أن صفات الطقوس التي أوردها تدل على السلوكيات الدينية لطائفة البراهمة، فقد ذكر أن ببلاد الهند جماعة تعيش على السياحة في البراري والجبال والفياض، ويقتصر غذاؤها على الحشيش وثمار الأشجار، ولا يتزوجون النساء، ومنهم من يجعل في إحليله حلقة حديد لئلا يأتي النساء، ولا يلبسون إلا شيئا من جلود النمر. ومن بين أحد طقوسهم أن ينصبوا أنفسهم مستقبلين الشمس محدقين فيها، وأضاف سليمان أنه قد رأى رجلا منهم على هذه الصفة من التعبد، ثم انصرف، وعندما عاود زيارته للهند بعد مدة ست عشرة سنة، وجده على تلك الحالة نفسها، فتعجب كيف تسلَمُ عيناه من حر الشمس(التاجر، والسيرافي،2000، 50-51). ومن عادات أهل الهند التي وثقها البيروني بعد معايشته لهم فترة طويلة من الزمن، أنهم لا يحلقون شيئاً من الشعر وأصلهم العري لشدة الحر، ويضفرون اللحى، ويعملون في ترك شعر العانة، بأن حلقها مهيج للشهوة، ثم لا يحلقها المولعة منهم بالباءة الحريص على المباضعة، ويطولون الأظفار استرواحاً إليها في حك الرأس وفلي الشعر. ويأكلون فرادى، ولا يعودون إلى ما فضل من الطعام، ويرمون بأواني المأكول إذا كانت خزفية، ويحمرون الأسنان بمضغ الفوفل (نبات من الفصيلة النخيلية، يستخدم على أنه منبه ومقوٍ جنسي) بعد تناول ورق التنبول (نبات عطري من الفصيلة الفلفلية يستعمله الهنود بدلاً من الخمر ويأخذونه بعد أطعمتهم، فيفرح نفوسهم ويذهب بأحزانهم). ويشربون الخمر

على الريق، ويحسون بول البقر ولا يأكلون لحمها، ويتسرولون بالعمائم ومنهم مَنْ يكتفي باللباس بخرقة قدر إصبعين يشدها على عورته بخيطين، ومنهم من يلبس سراويل محشوة بالقطن يكفي عدة لحف. ويبتدئون بالغسل بالرجل قبل الوجه، ويغتسلون ثم يجامعون، ويقفون في الباءة كعريش الكرم والنساء يرهزن عليهم من تحت إلى فوق. كما يقمن بأمور الحراثة وأزواجهم في راحة، ويلبس ذكورهم ملابس النساء من الصبغات والأسورة وخواتيم الذهب في البناصر وفي أصابع الأرجل. ويستشيرون النساء في الآراء والعوارض، ويحسنون وقت الولادة إلى الرجال دون النساء، ويفضلون أصغر الأبناء. ويأخذون اليد في المصافحة من جهة ظهر اليد، ولا يستأذنون للدخول في البيوت، ثم لا يخرجون من غير استئذان. ويتربعون في المجالس ويقصعون القمل بأيديهم، ويتمنون بالضرطة ويتشاءمون بالعطاس، ويتقززون الحائك، ويستنظفون الحجام (البيروني،1993، 69).ويروي التاجر بأن في الهند عبّاداً وأهل علم يعرفون بالبراهمة، وشعراء يغشون الملوك، ومنجمين، وفلاسفة، وكهّان، وأهل زجر للغربان وغيرها، وبها سحرة وقوم يظهرون التخابيل، ويبدعون فيها وذلك بقنوج خاصة، وهو بلد عظيم في مملكة الجزر، ويضيف التاجر أن بالهند قوماً يعرفون بالبكرجيين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب، إذ كانت لا يُقص إلا ما ينكسر منها. وهم على سبيل سياحة وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الإنس، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهند، فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة، فإذا أُشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلا في وقت حاجته. وللهند ضروب من الشرائع يتقربون بها إلى خالقهم، جل وعلا وعزّ عما يقول الظالمون علواً كبيراً، منها أن الرجل يبني في طُرقهم الخان للسابلة ويقيم فيه بقالا يبتاع المجتازون منه حاجاتهم، ويُقيم في الخان فاجرة من نساء الهند يجري عليها لينال منها المجتازون وذاك عندهم مما يثابون عليه. وبالهند قحاب يعرفن «بقحاب البد» والسبب فيه أن المرأة إذا نذرت نذراً وولد لها جارية جميلة، أتت بها البُدّ، وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له، ثم اتخذت لها في السوق بيتا وعلقت عليه ستراً وأقعدتها على كرسي ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر الملل ممن يتجاوز في دينه، فتمكن من نفسها بأجرة معلومة، وكلما اجتمع لها شئ من ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ليُصرف في عمارة الهيكل (التاجر، والسيرافي، 2000،89-90).وعن الجوكية يقول ابن بطوطة: « بعث إليّ السلطان يوماً وأنا عنده بالحضرة، فدخلت عليه وهو في خلوة، وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون

رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم. فأمرني بالجلوس فجلست، فقال لهما: هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره، فقالا: نعم، فتربع أحدهما، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعا، فعجبت منه وأدركني الوهم، فوقعت على الأرض. فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت وهو على حاله متربع. فأخذ صاحبه نعلا من شكارة كانت معه، فضرب بها الأرض كالمغتاظ، فصعدت إلى أن علت فوق المتربع، وجعلت تضرب في عنقه وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا. فقال السلطان: «إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل»ثم قال :» لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت» (ابن بطوطه،2011، 150).

ويورد البيروني فيما يخص حياة «البرهمن» وما يتوجب عليه في أثناء تعلمه، هو أن يتزهد ويقبل على تعلم علم الكلام والشريعة من أستاذ بخدمه في الليل والنهار، ويقيم قربان النار في طرفي النهار، ويسجد لأستاذه بعد القربان، ويغتسل كل يوم ثلاث مرات ويصوم يوماً ويفطر يوماً مع الامتناع عن اللحم، ويكون مقامه في دار الأستاذ ويخرج منها للسؤال والكدية من خمسة بيوت فقط في اليوم، وفي فترة العمر من الخامسة والعشرين إلى الخمسين يؤذن له بالزواج، ولا يجوز أن يتزوج بمن جاوز عمرها اثنتي عشرة سنة، بقصد النسل، على ألّا يطأ امرأته أكثر من مرة في الشهر، ومحرم عليه الربا، وصبغ النيل من بين الأصباغ النجسة بالنسبة إليه، ويتوجب عليه الاغتسال إذا مس جسده (البيروني،1993، 187). وأشار التاجر بأن أهل الهند إذا أرادوا التزويج تهانؤوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول. ويتزوج الرجل ما شاء من النساء، وإذا حضر الرجل منهم امرأة فبغت فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند وإذا زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسها قُتل الرجل وحده. والسرق في بلاد الهند قليل والكثير القتل وإذا سرق السارق فلساً فما فوقه أخذت خشبة طويلة فيُحدد طرفها ثم يقعد عليها إسته حتى تخرج من حلقه. وبناء أهل الهند حجارة وجص وآجر وطين، وطعامهم الأرز ولا يأكلون الحنطة (التاجر،والسيرافي،2000، 54-55).

وعن عادة الحرق بالنار فيروي التاجر بأنه إذا عزم الرجل منهم على إحراق نفسه، صار إلى باب الملك فاستأذن ثم دار في الأسواق، وقد أججت له النار في حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهاباً، ثم يعدو وبين يديه الصنوج متجولاً في الأسواق وقد أحاط به أهله وقرابته. وبعضهم يضع على رأسه إكليلاً من الريحان مملوءاً بالجمر ويصب عليه السندروس (نوع من الصمغ)، وهو مع النار كالنفط ويمشي وهامته تحترق وروائح

رأسه تفوح وهو لا يتغير في مشيته ولا يظهر منه جزع، حتى يأتي النار فيثب فيها فيصير رماداً، فيذكر بعض من حضر رجلا منهم يريد دخول النار أنه لما أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقه بيده إلى عانته، ثم أدخل يده اليسرى فقبض على كبده فجذب منها ما تهيأ له وهو يتكلم، ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت وصبراً على الألم، ثم زج بنفسه في النار (المرجع نفسه، 85). وقد وصف ابن بطوطة أحد مشاهد حرق الموتى، حين حضر إحدى الجنائز الهندية، فالهنود إذا مات أحدهم أججت له النار لحرقه، وألقي فيها، وهناك من النساء من تقبل أن تحرق نفسها مع زوجها، فتتزين وتركب والناس يتبعونها من مسلم وكافر، ويضرب بالطبول والأبواق بين يديها، ويرافقها جماعة من البراهمة ثم تلقى في النار لتحرق، مع زوجها المتوفى وهذا الفعل أمر غير واجب، لكن من أحرقت نفسها، أحرز أهلها شرفاً بذلك ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تقدم على ذلك عوقبت بأن ألبست الخشن من الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، وذكر ابن بطوطة أنه عندما شهد هذا المشهد، أفزعه وسقط عن فرسه مغشياً عليه من هول المنظر (ابن بطوطة، 1994، 138-141).

ومن عادات أهل الهند التي أوردها التاجر بأنهم يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه، فيضربون هامته حتى يموت، ولا يغتسلون من جنابة، وهم لا يأتون النساء في الحيض ويخرجونهن من منازلهم تقززاً. ويلبس أهل الهند فوطتين ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر الرجال والنساء (التاجر، والسيرافي، 2000، 56-57). وفيما يخص المباح من لحوم الحيوانات وفق ما أورده البيروني فهو الضأن والمعز والأرانب والظباء والجواميس والسمك والطير المائية والبرية والدراريج والحمام والطواويس، أما المنصوص على تحريمه البقر والخيل والبغال والحمير والأبعرة والفيلة والدجاج الأهلي والغربان والببغاء، وبيض جميعها بالإطلاق والخمر إلا الشودرا (وهم المنبوذون، أصحاب المهن الحقيرة، مثل: الكنس والنظافة ، وغسل الملابس، وتنظيف الجلود، لأنهم من الجنس الأسود) فإن شربها مباح لهم، وبيعها محظور عليهم كبيع اللحم (البيروني، 1993،195).

القضاء عند أهل الهند

وفي الجانب القضائي يورد البيروني بأن القاضي يطالب المدعي بالكتاب المكتوب على المدعى عليه فإن لم يكن فشهود بغير كتاب، ولا أقل في عددهم عن أربعة فما فوق، فإن عجز المدعي عن إقامة البينة، فعليه اليمين وفوق اليمين أن يعرض عليه شرب (البيشن) المعروف ببرهمن وهو

شر أنواعه؛ فإنه إن كان صادقاً لم يضر شربه، وفوق ذلك أن يجاء به إلى نهر عظيم شديد الجري عميق القرار، أو البئر بعيدة القعر كثيرة الماء، فيقول للماء: أنت طهار الملائكة عارفاً بالسر والعلانية فاقتلني إن كنت كاذباً واحرسني إن كنت صادقاً، ثم يحتوشه خمسة أنفار ويلقونه فيه فإنه إن كان صادقاً لم يغرق فيه ولم يمت، وفوق هذه يوجه القاضي كلا الخصمين إلى موضع أشرف أصنام تلك المدينة أو المملكة، فيصوم المنكر ذلك اليوم، ثم يلبس ثياباً جديدةً في اليوم التالي ويقف هناك مع خصمه، ويصب السدنة على الصنم ماءً ويسقونه إياه، فإنه إن كان كاذباً قاء الدم من ساعته، وفوق ذلك يؤخذ سمن ودهن ويغليان في قدر ويطرح فيها لعلامة الإدراك وردة يكون ذبولها واحتراقها تلك العلامة، وإذا بلغ غايته طرح في تلك القدر قطعة ذهب ويؤمر المنكر بإخراجها في يده فإن كان محقاً أخرجها، ثم عظمى الأيمان أن تحمى زبرة حديد إلى حد تذوب فيه وتوضع بالكلبتين على كف المنكر ليس بينها وبين الجلد سوى ورقة عريضة من أوراق النبات تحتها حبات أرز في قشورها قليلة متفرقة، يؤمر بحملها سبع خطوات ثم يرمي بها إلى الأرض (البيروني،1993، 97–98). وهذا يؤكد ما رواه سليمان التاجر الذي سبق البيروني في رحلته للهند بما يزيد عن قرن من الزمن، أنه إذا ادعى رجل على آخر في بلاد الهند دعوى يجب فيها القتل، قيل للمدعي» أتحامله النار» فيقول «نعم» فتحمى حديدة إحماءً شديداً حتى يظهر النار فيها، ثم يقال له: «ابسط يدك» فتوضع على يده سبع ورقات من ورق شجر لهم، ثم توضع الحديدة فوق الورق، ثم يمشي بها مقبلاً ومدبراً حتى يلقيها عن يده فيؤتى بكيس من جلود، فتدخل يده فيه ثم يختم بختم السلطان، فإذا كان بعد ثلاثة أيام أتي بأرز غير مقشر فيقال له:» افركه فإن لم يكن في يده أثر فقد فلج ولا قتل عليه، ويغرم الذي ادعى عليه (التاجر، والسيرافي،52،2000). وقد وصف ابن بطوطة عدل سلاطينهم، فقد أورد ابن بطوطة بأن رجلاً من كبار الهنود ادعى على السلطان بأنه قتل أخاه من غير موجب، ودعاه إلى القاضي، فمضى على قدميه، لا سلاح معه، إلى مجلس القاضي، فسلم وخدم، وكان قد أمر القاضي قبل ذلك أنه إذا جاء إلى مجلسه فلا يقوم له ولا يتحرك، فصعد إلى المجلس، ووقف بين يدي القاضي، فحكم عليه أن يرضي خصمه عن دم أخيه، فأرضاه. كما يروي ابن بطوطة بأن صبيا ادعى على السلطان بأنه ضربه من غير موجب ورفعه إلى القاضي فوجه الحكم عليه بأن يرضيه بالمال، وإلا أمكنه من القصاص. فشاهده ابن بطوطة يومئذ وقد عاد لمجلسه، واستحضر الصبي، وأعطاه عصا وقال له: «فوحق رأسي لتضربني كما ضربتك» فأخذ الصبي العصا وضربه بها إحدى

وعشرين ضربة، حتى طارت الكُلا عن رأس السلطان(ابن بطوطة، 2011، 80). ويذكر ابن بطوطة بأن أراضي الهند بما فيها النيبال في الشمال الغربي وهي موطن البوذا بأنها هي المكان الذي انطلقت منه البوذية، فهي أصل كتبهم الدينية، وفيها مشايخهم وعبادهم فيقال أن بها مئة ألف عابد، ويحكمها ثمانون قاضيا، يتحرون العدل والإنصاف حتى لو عرض عليهم ولد الملك لأنصفوا منه وأقعدوه مقعد الخصم، ومن شدة حرصهم عل تطبيق شريعة بوذا في مملكة قمار فإن القضاة لا يتهاونون في تطبيق الحدود، فيعاقب شارب الخمر عقابا عسيرا قد يفقد روحه على إثره، ويعاقب فاعل الزنا بالقتل، وهو الحد نفسه الذي يطبق على السارق (المرجع نفسه، 74). ويورد البيروني بأن من عادات أهل الهند ألا يفرق بين الزوجين إلا الموت إذ لا طلاق لهم، وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وما فوق الأربع محرم عليه إلا أن تموت إحداهن، وأما المرأة إذا مات زوجها فليس لها أن تتزوج وهي بين أحد أمرين إما أن تبقى أرملة طوال حياتها وإما أن تحرق نفسها مع زوجها وهو أفضل لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها (البيروني،1993،96). أما في الميراث فالأصل عندهم في المواريث سقوط النساء منها فما خلا الابنة فإن لها ربع ما للابن، وأما الزوجة فإنها إن لم تحرق نفسها وآثرت الحياة كان على وليها رزقها وكسوتها (المرجع نفسه، 199).

ويتضح مما سبق أن الحضارتين العربية والهندية قد تبادلتا التأثر والتأثير، وكان لمدونات الرحالة أثرٌ كبيرٌ في توثيق تاريخ العلاقات بين العرب وبلاد الهند، وتعرف العرب مختلف مجالات حياة أهل الهند. ولاشك بأن الانطباع السائد عند العرب عن أهل الهند، هو الاحترام والتقدير لما لأهل الهند من فلسفة وعلوم وآداب، ولما يتصفون به من ذكاء وحصافة وحكمة، وكذلك لدور الحضارة الهندية في تقدم الحضارة وتطورها بوجه عام بما فيها الحضارة العربية. كما تركت حضارة العرب واتساع نطاق تفكيرهم وتسامحهم الديني وعنايتهم بالعدل، صورة طيبة في نفوس أهل الهند. وكانت العلاقات على العموم ودية وسليمة، وقد مُنح العرب الذين استقروا في الهند حرية دينية تامة، وحظي الرحالة بالتقدير والاهتمام من أهل الهند وحتى من بعض الحكام والسلاطين، يشار إلى أن ابن بطوطة قد وليّ منصب قاض في إحدى فترات وجوده في بلاد الهند وأُرسل سفيرا من أحد سلاطين الهنود إلى الصين. ومما أكده مجمل الرحالة الذين زاروا بلاد الهند هو إقامتهم للعدل وإعادة الحقوق إلى الأشخاص المنكوبين. فالهنود من أقدم الأجناس البشرية على سطح الأرض، ويعدّهم المسعودي واحداً من الأجناس السبعة العظيمة على سطح

الأرض. وقد نقل الشهرستاني أن بعض أهل العلم قسّم سكان العالم إلى أربعة أجناس: العرب، والفرس، واليونان والهنود ، ثم قابل بين العرب والهنود وقال: إنهم متقاربون في العبادات، وهم حريصون على التثبت من خصائص الأشياء والحكم على أصولها وحقائقها، وفي الاعتماد على الوسائل الروحية، التي يبدو فيها الذكاء والظرف والأناقة والثقافة. ويوجد اليوم تعاون وثيق بين الهند ومعظم الدول العربية في الحقول التربوية والعلمية والثقافية والفنية. وأن عدداً كبيراً من المعلمين والطلاب والفنيين الهنود في كثير من البلاد العربية. كما أن عدداً من الطلاب العرب يدرسون في الجامعات الهنديّة. وهذا بحد ذاته دليل على رغبة نامية في تواصل العلاقات التاريخية العريقة واستمرارها بين الشعبين العربي والهندي.

المصادر والمرجع:

- ابن خرداذبه(1992).المسالك والممالك. تحقيق: م.ي. دي خويه. مجلد 39، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. ألمانيا: جامعة فرانكفورت.
- أبو اسحق إبراهيم بن محمد الإصطخري، (1992).الجغرافيا الإسلامية. مجلد (34). منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية . ألمانيا: جامعة فرانكفورت.
- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، (1993).تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة. تحقيق: إدوارد سخاو. في الجغرافيا الإسلامية. مجلد (105)، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. ألمانيا: جامعة فرنكفورت.
- أبو عبدالله المقدسي، (1992).أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق ي. دي. خويه. مجلد (36). منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. ألمانيا: جامعة فرانكفورت.
- أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، (1891).الأعلاق النفيسة. الجزء (7). تحقيق م.ي.دي خويه. طبعة لندن: لندن.
- أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، (1957).تاريخ الأدب الجغرافي. ترجمة: هاشم، صلاح الدين عثمان.الجزء(1). القاهرة: القسم الثقافي في جامعة الدول العربية.
- أنور عبد العليم، (1979).الملاحة وعلوم البحار عند العرب.عالم المعرفة. العدد (13). الكويت.
- أيمن فؤاد السيد، (1992).العرب وطريق الهند حتى أواسط القرن السادس. المؤرخ المصري. العدد (8). القاهرة.

- بيرو طافور، (1968).رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي. تحقيق:حسن حبشي. القاهرة: دار المعارف.
- زكريا بن محمد القزويني، (1994).آثار البلاد وأخبار العباد. مجلد (198). تحقيق:فرديناند مستفيلد. في الجغرافيا الإسلامية، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. ألمانيا: جامعة فرانكفورت.
- سامي سعيد الأحمد، (1985). تاريخ الخليج العربي من أقدم العصور حتى التحرير العربي. البصرة.
- سليمان التاجر، ، وأبو زيد السيرافي، (1994).أخبار رحلات العرب والفرس إلى الهند والصين في الجغرافية الإسلامية. مجلد (164). منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. ألمانيا: جامعة فرانكفورت.
- سليمان التاجر، ، وابي زيد حسن السيرافي، (1999).أخبار الصين والهند في القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي. تحقيق:الشاروني. يوسف .القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- شرف الزمان الطاهر المرزوي، (1942).فصول حول الصين والترك والهند منتخبة من كتاب طبائع الحيوان. ترجمة .منورسكي. طبعة لندن. لندن.
- طه باقر، (2011).مقدمة في تاريخ الحضارة القديمة. ج(2). بغداد: دار الورق للنشر المحدودة.
- عبدالله المجيدل، (2008).عُمان في أدب الرحالة. مجلة التراث العربي. العدد(110). دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- علي بن الحسين المسعودي، (1966).مروج الذهب ومعادن الجوهر. طبعة بافيه دي كرتاي. تحقيق: شارل بلا، الجزء (1).بيروت.
- غوستاف لوبون، (1969).حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر. القاهرة: مطبعة الحلبي.
- محمد إسماعيل الندوي، (بلا تاريخ).تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ط(1). بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر.
- محمد بن عبدالله الطنجي ابن بطوطة، (1994).رحلات ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. جامعة فرانكفورت: ألمانيا.
- محمد بن عبدالله الطنجي ابن بطوطة، (2011).تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. مراجعة درويش الجويدي. ج2. بيروت: المكتبة العصرية.

- محمد نصر عبد الرحمن ، (2014).الوجود العربي في الهند في العصور الوسطى. ط (1). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- النصيبيني أبي القاسم ابن حوقل، (1992).صورة الأرض. تحقيق:كرامرس. مجلد 35.ألمانيا: جامعة فرانكفورت.
- همايون كبير، (2010).التراث الهندي من العصر الآري إلى العصر الحديث. ترجمة ذكر عبد الرحمن. الإمارات العربية المتحدة: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.

المراجع الأجنبية:

- Lamerg.C. and Karlovvsky, Trafe Mechanism in indus and Mesopotamia (London) 1971 . pp.302- 306
- Muhammed.S. HusaynNainar; the relgions sects of southern inia mentioned (4) geogaphes in .Islamic geography, institute of Arabic Islamic Frankfurt, y121.p.393
- .Nadvi.S.1937.Erly Relation between Arabia and India.IC.11

الهوامش:

1. لا نعلم سبباً وجيهاً لبيع المخطوط آنذاك سوى الاستهانة بالتراث، ولا شك بأنه قد تم بيع النسخة الأصلية، كون تقنيات تصوير (الميكروفيلم) للمخطوطات لم تكن قد اكتشفت بعد.